ظَاهِرَةُ الغمُوضِ فِي الشِّعرِ الحدِيثِ

د/علي يوسف اليعقوبي

يَكَادُ يَتَرَبَّعُ الغُمُوضُ عَلَى مَسَاحَةٍ كَبِيرَةٍ مِن عَرشِ الشِّعرِ الحَدِيثِ بِلا مُنَازِعٍ، ذَلِكَ أَنَّهُ يُعتَبَرُ السِّمَةَ الرَّئِيسَة، وَالرَّكِيزَةَ الأَسَاسَ، إذَا مَا عُدَّت رَكَائِزُ الشِّعرِ الحَدِيثِ، وَهُوَ مَعلَمٌ وَاضِحٌ مِن مَعَالِمِ الشِّعرِ الحَدَاثِيِّ المُعَاصِرِ، الذِي وَرِثَهُ عَن نَظِيرِهِ الشِّعرِ الغَربِيِّ [١]، وَلَقَد مَضَى فُرسَانُ الحَدَاثَةِ يُهَوِّنُونَ مِن شَأنِ الوُضُوحِ، وَالاتِّصَالِ بِالمُتَلَقِّي، حَتَى أَضحَى الاستِفسَارُ عَن مَعنَى النَّصِّ دَلِيلَ التَّخَلُّفِ، وَالرَّجعِيَّةِ، وَأَنَّ السُّؤَالَ عَن ذَلِكَ يَقتَضِي الاعتِذَارَ، وَالأَسَفَ، فَهَاهُوَ الدُّكتورُ عَبدُ اللّهِ الغَذَّامِيُّ، يُقَدِّمُ اعتِذَارَهُ، وَأَسَفَهُ سَلَفًا، بَينَ يَدَي قَصِيدَةِ صَلاحِ عَبدِ الصَّبُورِ، حَتَّى لا يَظُنَّ أَحَدٌ أَنَّهُ يَستَفسِرُ، أَو يَسأَلُ حيثُ يَقُولُ: "وَالذِي أَرجُوهُ أَلا يَتَبَادَرَ إِلَى الذِّهنِ أَنَّنِي أَسعَى لِشَرحِ القَصِيدَةِ، فَهَذَا لَيسَ هَدَفِي" [٢]، وَإِذَا حَاوَلَ أَحَدٌ الكَشفَ عَن مَعنَى نَصٍّ مُعَيَّنٍ، أَوِ الحَدِيثَ عَن تَجرُبَةِ الشَّاعِرِ، أَو رِسَالَتَهُ، انهَالَ عَلَيهِ اللَّومُ، وَالتَّقرِيعُ، فَقَد ارتَكَبَ حَمَاقَةً تَحتَاجُ إِلَى تَكفِيرٍ، فَالسُّؤَالُ عِندَ الحَدَاثِيِّينَ بِدعَةٌ، وَالسُّكُوتُ عَنهُ وَاجِبٌ، "فَلَيسَ مِنَ الضَّرُورِيِّ لِكَي نَستَمتِعَ بِالشِّعرِ أَن نُدرِكَ مَعنَاهُ إِدرَاكًا شَامِلاً، بَل لَعَلَّ مِثلَ هَذَا الإِدرَاكِ، يُفقِدُنَا هَذِهِ المُتعَةَ، ذَلِكَ أَنَّ الغُمُوضَ هُوَ قُوَامُ الرَّغبَةِ بِالمَعرِفَةِ، وَلِذَلِكَ هُوَ قُوَامُ الشِّعرِ" [٣]، وَالغَرِيبُ أَنَّ الحَدَاثِيِّينَ يُنَاقِضُونَ أَنفُسَهُم بِأَنفُسِهِم، وَهَذَا التَّنَاقُضُ مَرَدُّهُ فِي الأَسَاسِ مُخَالَفَةُ الفِطرَةِ فِي حُبِّ الاطِّلاعِ، وَالتَّعَرُّفِ، وَالتَّذَوُّقِ، فَعَلَى الرَّغمِ مِن أَنَّ شَرحَ القَصِيدَةِ لَيسَ هَدَفًا عِندَ الغَذَّامِيِّ، إِلا أَنَّهُ لَم يَستَطِعِ أَن يَخرُجَ عِن ذَاتِهِ، وَفِطرَتِهِ فِي الشَّرحِ، وَالتَّحلِيلِ، حَيثُ نَرَاهُ، بَعدَ اعتِذَارِهِ السَّابِقِ بِقَلِيلٍ، قَد بَدَأَ فِي الشَّرحِ، وَالتَّحلِيلِ، وَالتَّفسِيرِ، وَقَد استَغرَقَ ذَلِكَ مِنهُ ثَمَانِي صَفَحَاتٍ مِنَ القَطعِ الكَبِيرِ [٤].

وَالَذِي يَبدُو أَنَّ الحَدَاثِيِّينَ يُكَسِّرُونَ اللُّغَةَ، وَيُوَظِّفُونَهَا فِي غَيرِ مَا وُضِعَت لَهُ، بِحَيثُ يَبدُو الوَاحِدُ مِنهُم وَكَأَنَّهُ يُخَاطِبُ أُنَاسًا مِن كَوكَبٍ آخرَ، فَلنَنظُر إِلَى جَبرَا إِبرَاهِيمَ جَبرَا، وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ الوُضُوحِ وَالغُمُوضِ عِندَ الحَدَاثِيِّ فيقولُ: "فَالوُضُوحُ المُطلَقُ لَيسَ حَدَاثِيًّا، وَإِنَّمَا الحَدَاثيُّ.. الذِي يَعِي أَنَّ لَيسَ ثَمَّةَ شَيءٌ وَاضِحٌ.. ، وَالشَّاعِرُ الذِي يُحَدِّدُ المَفَاهِيمَ بِوُضُوحٍ وَبَسَاطَةٍ..، يَقُومُ بِعَمَلِيَّةِ إِغلاقٍ لإِمكَانِيَّةِ التَّفسِيرِ!!، وَالإِيحَاءِ، وَالإِشعَاعِ.."[٥]، فَإِذًا كَانَ الحَدَاثِيُّ ضِدَّ الوُضُوحِ، وَالتَّفسِيرِ، فَلِمَاذَا يَكُونُ تَحدِيدُ المَفَاهِيمِ، يَقُودُ إِلَى (**إغلاقٍ لإمكَانِيَّةِ التَّفسِيرِ**)، وَالتَّفسِيرُ هُوَ التَّوضِيحُ، فَالعِبَارَةُ المَحصُورَةُ بَينَ مَعقُوفَتَينِ، تُوحِي لِلقَارِئِ بِأَنَّهُم ضِدَّ مَن يُحَاوِلُ إِغلاقَ

(١) د/عبد المجيد العمراوي – الأدب الإسلامي ووضوح التصور – مجلة المشكاة، ع٣٢، ص٩٧. "بتصرف"

(٢) د/عبد اللّه محمد الغذامي – كيف نتذوق قصيدة حديثة – (فصول) ع٤، ص١٠٠.

(٣) أدونيس – زمن الشعر – ط٢، ١٩٧٨م، دار العودة – بيروت – ص٢١.

(٤) ينظر/ عبد اللّه محمد الغذامي – كيف نتذوق قصيدة حديثة – (فصول) ع٤، ص٩٧ – ١٠٤.

(٥) صالح جواد الطعمة – الشاعر العربي المعاصر، ومفهومه النظري للحداثة – (فصول) ع٤، ص١٣.

إمكَانيَّةِ التَّفسيرِ!!. وَمِنَ التَّلَبُّسِ بالغُمُوضِ – **أيضًا** – مَا تَحَدَّثَت بِهِ فِريَالُ غَزُولُ، فِي سِيَاقِ مَقَالِهَا عَن غُمُوضِ شِعرِ مُحَمَّدٍ عَفِيفِي مَطَر: "أَنَّ النَّهرَ كَالقَصِيدَةِ؛ يَلبِسُ الأَقنِعَةَ، وَالنَّهرُ كَالقَصِيدَةِ؛ يُمكِنُنَا أَن نَتَحَدَّثَ عنَ دَلالَتِهِ حَتَّى أَبعَدِ حُدُودِ الكَلامِ، وَلَكِن.. مَا مَعنَى النَّهرِ ؟ النَّهرُ يَكُونُ، وَلا يَعنِي، فَالمَعنَى فِي كِيَانِهِ، وَكَذَلِكَ القَصِيدَةُ، فَعِندَمَا تَطفَحُ الدَّلالَةُ، يَنحَسِرُ المَعنَى"!! (٦)، وَإِذَا كَانَ التَّفسِيرُ وَاحِدًا مِنَ المُحَرَّمَاتِ، وَعَلَى الحَدَاثِيِّ اجتِنَابُهُ، فَهَا هِيَ فِريَالُ غَزُولُ تَتَنَاقَضُ مَعَ عَبدِ اللهِ الغَذَّامِيِّ، الذِي حَذرَ مِن أَن يُفهَمَ كَلامُهُ عَلَى أَنَّهُ مُحَاوَلَةٌ لِلتَّفسِيرِ!!، وَهِيَ تَعتَرِضُ عَلَى أَنَّ ظَاهِرَةَ الغُمُوضِ عِندَ مُحَمَّدٍ مَطَرٍ "تُمَثِّلُ قِمَّةَ الغُمُوضِ فِي الإِنتَاجِ العَرَبِيِّ" (٧)، ثُمَّ تَتَحَدَّثُ فِريَالُ غَزُولُ **عَمَّا اعتَرَضَهَا مِن عَقَبَاتٍ** خِلالَ دِرَاسَتِهَا لِشِعرِ مَطَرٍ، فَكَانَ مِن هَذِهِ العَقَبَاتِ مَا هُوَ قُصُورٌ ذَاتِيٌّ فِيهَا، لأَنَّ "قِرَاءَةَ مَطَرٍ تَعتَمِدُ عَلَى ثَقَافَةٍ مَوسُوعِيَّةٍ؛ فِي الفَلسَفَةِ، وَالتَّصَوُّفِ، وَالشِّعرِ، وَالتُّرَاثِ، وَالفُولكلورِ..، فَالقَصِيدَةُ "**المَطَرِيَّة**" تَفجِيرٌ مَعرِفِيٌّ.. يَجعَلُ القَارِئَ يَشعُرُ بِأَنَّهُ لَيسَ أَكثَرَ مِن نَاشِئٍ مُبتَدِئٍ..، وَأَوَدُّ أَن أَشكُرَ كُلَّ الذِينَ سَاعَدُونِي.. وَلَولا كَثرَتُهُم لَذَكَرتُهُم وَاحِدًا، وَاحِدًا.." (٨)، وَإِذَا كَانَ هَذَا حَالَ نَاقِدَةٍ، تَحمِلُ دَرَجَةً عِلمِيَّةً عَالِيَةً (**الدكتوراه**)، غَيرَ قَادِرَةٍ عَلَى التَّعَامُلِ مَعَ هَذَا النَّوعِ مِنَ الشِّعرِ الحَدَاثِيِّ، حيثُ استَعَانَت بِعَدَدٍ كَبِيرٍ مِن أهلِ الاختصَاصَاتِ المختَلِفَةِ، فَمَا بَالُ القَارِئِ العَادِيِّ! وَإِذَا تَعَذَّرَ فَهمُ هَذَا (**الشِّعرِ**) عَلَى الخَاصَّةِ، وَالعَامَّةِ فَلِمَاذَ هَذَا الدِّفَاعُ الكَبِيرُ عَنهُ. وَلَعَلَّ كَلامَ فِريال غَزُول عَن نَمُوذَجٍ مِن نَمَاذِجِ الشِّعرِ الحَدَاثِيِّ، وَمَا يُجَلِّلُهُ مِن غُمُوضٍ، يُوحِي بِالكَآبَةِ مِن مُستَقبَلِ هَذَا النَّوعِ مِنَ الشِّعرِ، فَإِذَا كَانَ أَهلُ الاختِصَاصِ مِنَ الحَدَاثِيِّينَ أَنفُسِهِم يُدلُونَ بِهَذِهِ الشَّهَادَاتِ، فَكَيفَ بِنَا مَعَ الآخَرِينَ؟! لا شَكَّ أَنَّ هَذَا الاتِّجَاهَ الشِّعرِيَّ لَن يُكتَبَ لَهُ النَّجَاحُ مَا دَامَت هَذِهِ قَوَاعِدُهُ الأَسَاسِيَّةُ التِي يَنطَلِقُ مِن خَلالِهَا.

وَفِي إِطَارِ التَّلاعُبِ بِالتَّشكِيلِ اللُّغَوِيِّ، تُحَاوِلُ الحَدَاثَةُ أَن تَكسَبَ مُؤَيِّدِينَ جُدُدًا لَهَا، مِن خِلالِ مُمَالأَةِ القَارِئِ العَادِيِّ الذِي يَسِيرُ فِي رِكَابِهِم، فَالقَارِئُ الوَاعِي، المُستَنِيرُ، فِي نَظَرِهِم "كَالشَّاعِرِ الحَقِيقِيِّ، لا يُعنَى بِمَوضُوعِ القَصِيدَةِ، وَإِنَّمَا يُعنَى بِحُضُورِهَا أَمَامَهُ كَشَكلٍ تَعبِيرِيٍّ..، وَعَلَيهِ أَن يَتَوَقَّفَ عَن طَرحِ السُّؤَالِ القَدِيمِ: مَا مَعنَى هَذِهِ القَصِيدَةِ ؟ وَمَا مَوضُوعُهَا؟ لِكَي يَسأَلَ السُّؤَالَ الجَدِيدَ: مَاذَا تَطرَحُ عَلَيَّ مِنَ الأَسئِلَةِ ؟ وَمَاذَا تَفتَحُ عَلَيَّ مِن آفَاقٍ.." (٩)، وَلا نَدرِي مَتَى، وَكَيفَ سَتُفتَحُ الآفَاقُ ؟ قَبلَ فَهمِ القَصِيدَةِ، أَم بَعدَهُ ؟ وَإِذَا كُنتَ تُرِيدُ أَن تَكُونَ حَدَاثِيًا، فَلتَتَوَقَّف عَن طَرحِ الأَسئِلَةِ، وَالاستِفسَارَاتِ. وَلَعَلَّ هَذَا القَدرَ الكَبِيرَ مِنَ الاهتِمَامِ بِالغُمُوضِ، وَتَركِيزَ فِكرَةِ عَدَمِ طَرحِ الأَسئِلَةِ، لَهُ أَبعَادٌ بَاطِنَةٌ، أَبعَدُ غَورًا مِن مَسَائِلِ الأَدَبِ الظَّاهِرَةِ، وَلِهَذَا نُلاحِظُ

(٦) فريال جبوري غزول – فيض الدلالة، وغموض المعنى في شعر محمد عفيفي مطر – (فصول) ع٣، ص١٧٥.

(٧) السابق نفسه: ع٣، ص١٧٦.

(٨) السابق نفسه: ع٣، ص١٧٧.

(٩) د/عبد الحميد جيدة – الأصالة والحداثة – ص٢٨٢.

– مِن وجهـةِ نَظَـرٍ حَدَاثِيَّـةٍ – أَنَّ سَـيطَرَةَ "الغُمُـوضِ سِـمَةُ النُّصُـوصِ البَاقِيَـةِ، لا الزَّائِلَـةِ.. لأَنَّ الغُمُـوضَ بِالنِّسبَةِ لِلشِّعرِ، كَالشِّعرِ بِالنِّسبَةِ لِلُّغَةِ" (١٠).

وَلَقَد عَالَجَ كَثِيرٌ مِنَ النُّقَّادِ المُعَاصِرِينَ قَضِيَّةَ الغُمُوضِ وَالوُضُوحِ فِي الشِّعرِ، مِن خِلالِ رُؤيَةٍ أَكثَرَ اتِّزَانًا، وَمَوضُوعِيَّةً، فَفَرَّقَ بَينَ نَوعَينِ مِنَ الغُمُوضِ، انطِلاقًا مِنَ الإِيجَابِيَّةِ، وَالسَّلبِيَّةِ، هَـذَا "وَيَجِبُ الاتِّفَاقُ عَلَى أَنَّ "**الغُمُوضَ**" أَو "**عَدَمَ التَّكَشُّفِ**" سِلاحٌ ذُو حَدَّينِ، قَد يُحسَبُ لِصَاحِبِهِ، وَقَد يَكُونُ عَلَيهِ، فَإِذَا كَانَ هُنَاكَ نَوعٌ مِن سَبقِ الإِصرَارِ، عَلَى مُمَارَسَةِ تَغطِيَةٍ مُهَندَسَةٍ..، لِلمَعَانِي، وَالأَفكَارِ، وَالمُعطَيَاتِ، كَي لا تَتَكَشَّفَ بِسُهُولَةٍ، وَتَتَعَرَّى بِالمَجَّانِ، وَكَي تَمنَحَ القَارِئَ مُتعَةَ الاكتِشَافِ المُتَجَدِّدِ..، وَإِذَا كَانَت هُنَاكَ قُدرَةٌ مُتَمَرِّسَةٌ، عَلَى تَسخِيرِ كُلِّ قُدُرَاتِ اللُّغَةِ، وَأَغطِيَتِهَا، وَمَجَازَاتِهَا، وَإِمكَانَاتِهَا الدَّلالِيَّةِ غَيرِ المُبَاشِرَةِ.. لَكَانَت الأُولَى. وَسَتَكُونُ الثَّانِيَةُ بِكُلِّ تَأكِيدٍ لَو جَاءَ "**الغُمُوضُ**"، أَو "**عَدَمُ التَّكَشُّفِ**" نَتِيجَةَ نَوعٍ مِن فُقدَانِ السَّيطَرَةِ.. عَلَى تَطوِيعِ اللُّغَةِ..، وَمِن عَجزِ الطَّاقَةِ الإِبدَاعِيَّةِ عَن تَحقِيقِ التَّوَاؤُمِ، وَالانسِجَامِ، بَينَ اللُّغَةِ، وَسَيَّالِ الخَيَالِ وَالتَّدفُّقِ الإِبدَاعِيِّ" (١١)، وَمِمَّن عَالَجَ القَضِيَّةَ مِنَ المُنطَلَقِ ذَاتِهِ، مُوَائِمًا بَينَ "**الفَنِّيَّةِ**" مِن جِهَةٍ وَ"**الغُمُوضِ**" مِن جِهَةٍ أُخرَى؛ الدُّكتُورُ حَسَنُ بنُ فَهدٍ الهُوَيمِلِ، الذِي فَرَّقَ بَينَ نَوعَينِ مِنَ الغُمُوضِ؛ غُمُوضٍ فَنِّي عَفوِيٍّ، وَآخَرَ تَغَامُضٍ صِنَاعِيٍّ مُتَكَلِّفٍ، "فَالغُمُوضُ فِي الشِّعرِ يَكُونُ ظَاهِرَةً فَنِّيَّةً، وَخَصِيصَةً ذَاتِيَّةً، تَتَعَلَّقُ بِاللُّغَةِ، أَوِ الفِكرِ، وَمَتَى جَاءَ الغُمُوضُ طَبِيعِيًّا، لا تَكَلُّفَ فِيهِ، أَضفَى عَلَى النَّصِّ حِليَةً جَمَالِيَّةً، أَمَّا حِينَ يَكُونُ مُتَكَلَّفًا، مُغرِقًا حَتَى الإِحَالَةِ، وَالانقِطَاعِ، وَالطَّلسَمَةِ، فَإِنَّهُ فِي تِلكَ الحَالَةِ يَكُونُ ظَاهِرَةً مَعِيبَةً، وَالذَّوقُ السَّلِيمُ هُوَ الذِي يُحَدِّدُ القَدرَ المَقبُولَ مِنَ الغُمُوضِ، وَالنَّاسُ مُختَلِفُونَ فِي ذَلِكَ، وَالمُعَوَّلُ عَلَيهِ.. حُكمُ المُتَخَصِّصِينَ ذَوِي الخِبرَةِ، وَالدِّرَايَةِ، وَالإِحَاطَةِ المَعرِفِيَّةِ بِمُستَوَيَاتِهِ، وَأَنمَاطِهِ، وَتَحَوُّلاتِ مَفَاهِيمِهِ عَبرَ الزَّمَنِ" (١٢)، وَيَصِفُ الدُّكتُورُ نَجِيبُ الكِيلانِيُّ هَذَا الغُمُوضَ، وَالإِبهَامَ الذِي "سَادَ الآدَابَ المُعَاصِرَةَ بِالأَمرِ المُخِيفِ.. وَأَنَّهُ ضَربٌ مِنَ الشُّذُوذِ، وَقَد أَصبَحَ قَاعِدَةً، بَل فَلسَفَةً يُرَوِّجُ لَهَا النُّقَّادُ فِي مُختَلَفِ الأَنحَاءِ، وَيَعتَبِرُونَهَا مِعيَارَ الحَدَاثَةِ، وَالإِبدَاعِ" (١٣)، وَلَعَلَّ هَذَا مَا حَدَثَ فِي "سَاحَاتِ التَّجدِيدِ الرَّافِضِ لِكُلِّ قَيدٍ، وَالمُتَمَرِّدِ عَلَى كُلِّ قَاعِدَةٍ، حَيثُ يُقَدِّمُ المُجَدِّدُونَ أَعمَالَهُمُ الأَدَبِيَّةَ غَيرَ مُنبَثِقَةٍ عَنِ (**اللاوعي**) كَمَا يَتَوَهَّمُونَ، وَيُوهِمُونَ غَيرَهُم، وَلَكِن عَن سَبقِ إِصرَارٍ، فِي جَعلِ العَمَلِ الأَدَبِيِّ لُغزًا مُحَيِّرًا، غَامِضًا، يَعجَزُ عَن حَلِّ رُمُوزِهِ، أَيُّ مُفَكِّرٍ، أَو فَيلَسُوفٍ، فَضلاً عَنِ النَّاقِدِ، وَالأَدِيبِ" (١٤)، وَفِي الوَقتِ نَفسِهِ يَصِفُ الأَدَبَ الإِسلامِيَّ بِأَنَّهُ "أَدَبُ الوُضُوحِ، لا يَجنَحُ إِلَى إِبهَامٍ مُضَلِّلٍ، أَو سَودَاوِيَّةٍ مُحَيِّرَةٍ قَاتِلَةٍ، أَو يَأسٍ مُدَمِّرٍ، فَالوُضُوحُ هُوَ شَاطِئُ

---

(١٠) فريال جبوري غزول – فيض الدلالة، وغموض المعنى في شعر محمد عفيفي مطر– (فصول) ع٣،ص١٧٦.

(١١) د/عماد الدين خليل – نماذج من إسلامية الأدب بالمغرب – مجلة المشكاة، ص٦٣.

(١٢) د/ حسن بن فهد الهويمل– لقاء العدد – مجلة الأدب الإسلامي – ع٢٠، ص٣١.

(١٣) د/ نجيب الكيلاني – مدخل إلى الأدب الإسلامي – ص٢٩.

(١٤) د/ عماد الدين خليل – مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي – ص١٤٨.

الأَمَانِ، الذِي يَأوِي إِلَيهِ الحَائِرُونَ، وَالتَّائِهُونَ، فِي بَيدَاءِ الحَيَاةِ المُحرِقَةِ المُخِيفَةِ" [١٥]، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ يَظَلُّ الأَدَبُ الإِسلامِيّ مُتَّسِمًا "بِالصِّدقِ، وَالوُضُوحِ، وَالالتِزَامِ بِالإِسلامِ فِي أَوسَعِ صُوَرِهِ، لِذَا نَجِدُهُ مُرتَبِطًا بِالسُّلُوكِ، وَالنَّشَاطِ الإِنسَانِيِّ.. وَتَبقَى مِيزَةُ الوُضُوحِ مِن أَكبَرِ مُمَيِّزَاتِ هَذَا الأَدَبِ، فَهُوَ أَدَبٌ.. يَستَنِدُ إِلَى مَنهَجٍ رَبَّانِيٍّ شَامِلٍ، يُفَسِّرُ حَقِيقَةَ الأُلُوهِيَّةِ، التِي هِيَ مَصدَرُ كُلِّ شَيءٍ" [١٦].

وَقَد شَهِدَ شَاهِدٌ مِنَ الوَسَطِ الحَدَاثِيِّ عَلَى الجَرِيمَةِ التِي يَرتَكِبُهَا الحَدَاثِيُّونَ فِي حَقِّ الشِّعرِ، فَقَالَ: "الشِّعرُ العَرَبِيُّ عَرَفَ الغُمُوضَ، وَلَكِن لَيسَ الذِي يَقُولُ بِهِ الحَدَاثِيُّونَ اليَومَ..، هَذَا الغُمُوضُ الذِي نَرَاهُ اليَومَ؛ غُمُوضٌ تَافِهٌ، هَذَيَانٌ.." [١٧]، وَلِتَجلِيَةِ المَوقِفِ، وَكَي تَزدَادَ الصُّورَةُ وُضُوحًا، فَلا بُدَّ مِنَ استِحضَارِ بَعضِ النَمَاذِجِ مِنَ الشِّعرِ الحَدِيثِ، لِنَتَلَمَّسَ أَهَمَّ سِمَاتِ، وَخَصَائِصِ الصِّيَاغَةِ الشِّعرِيَّةِ عِندَ مَا يُسَمَّى (**بِالشِّعرِ الحُرِّ**)، لِنَرَى مَا يَتَضَمَّنُهُ مِن فَوضَى فِي الصِّيَاغَةِ وَالتَّركِيبِ، وَاستِبَاحَةٍ لِلمَعَانِي، وَسُخرِيَةٍ وَاستِهزَاءٍ بِكُلِّ القِيَمِ الخُلُقِيَّةِ وَالشِّعرِيَّةِ، التِي قَامَ عَلَيهَا الشِّعرُ وَمَازَالَ، وَالتِي هِيَ انعِكَاسٌ حَقِيقِيٌّ، وَطَبِيعِيٌّ، لِمَا تُعَانِيهِ المُجتَمَعَاتُ الغَربِيَّةُ مِن تَنَاقُضَاتٍ عَمِيقَةٍ دَاخِلَ الإِنسَانِ نَفسِهِ، فَلا يَكَادُ القَارِئُ لِهَذَا النَمَطِ مِنَ الكَلامِ يَفهَمُ شَيئًا مِمَّا يَقَعُ تَحتَ بَصَرِهِ، حَتَّى يَتَّهِمَ نَفسَهُ بِالغَبَاءِ المُفرِطِ!!، لِعَدَمِ قُدرَتِهِ عَلَى استِكنَاهِ أَو سَبرِ غَورِ هَذَا الكَلامِ!!، لأَنَّهُ يَشعُرُ مُنذُ اللَّحظَةِ الأُولَى، أَنَّ هَذَا النَّمطَ مِنَ القَولِ بَعِيدٌ عَن بِيئَتِهِ، غَرِيبٌ عَن عَصرِهِ !!

يَقُولُ شَوقِي أَبِي شَقرَا: فِي حِذَائِي مِسمَار

وَفِي ذِقنِي شَوكَة
هَذِهِ مُمتَلَكَاتِي
أَفتَحُ الشَّمسِيَّةَ وَالقَنَانِي
فِي عُنُقِ زَرَافَةِ أَصطَافُ [١٨]

وَآخَرُ: (محمد عفيفي مطر) يَشرَبُ مَرَقَ الأَحذِيَةِ المَنقُوعَةِ، وَيَأكُلُ مَا يَخبِزُهُ لَهُ الإِسفَلتُ.
أَشرَبُ مَرَقَ الأَحذِيَةِ المَنقُوعَةِ (!!)
أَكَلتُ مَا يَخبِزُهُ الإِسفَلتُ (!!) [١٩]

وَيَقُولُ القَاسِمُ كَلِمَاتٍ مُتَقَطِّعَةً، لا رَابِطَ بَينَهَا، وَلا رُوحَ فِيهَا، وَلا مَعنًى مُفِيدًا لَهَا:

يَرتَعِشُ كَثِيبٌ حَارٌّ
تَتَحَرَّكُ رِمَالُهُ الحِيَادِيَّةُ
هِيَ ذِي تَتَشَكَّلُ، وَتَتَّضِحُ تَقَاطِيعُ الجَسَدِ

---

(١٥) د/ نجيب الكيلاني – مدخل إلى الأدب الإسلامي – ص٣٦.

(١٦) عبد المجيد العمراوي – الأدب الإسلامي ووضوح التصور – مجلة المشكاة، ع٣٢، ص٩٨.

(١٧) بلند الحيدري – مجلة المنتدى – الإماراتية، ص٦.

(١٨) شوقي أبي شقرا – حجر في سروال – مجلة شعر، ع٢٧، ص١٨.

(١٩) محمد عفيفي مطر – كتاب الأرض والدم – (ديوان)، ص٩٩.

تَتَمَاسَكُ التَّدَاعِيَاتُ الهُلاميَّة
بِبُطءٍ، إنَّمَا بِإِصرَار
لَحَظَات

إِلَى أَن يَقُولَ:

أَيَّتُهَا الأَشياءُ الغَامِضَة
أَعِينِينِي عَلَى امتِدَادِكِ البَاهِر
عَلَى هَذا الهُدُوءِ المُوَبِّخ
مِثلَ إِلَهٍ سَاخِطٍ
يَرقبُ العُصَاة
غَيرَ آبِهٍ لِمَصِيرِهِم الرَّهِيب (!!) [٢٠]

وَقَد صَارَ شُعَرَاءُ الحَدَاثَةِ يَتَبَاهَونَ، وَيَفتَخِرُونَ بِهَذَا الإِنجَازِ العَظِيمِ، فَهَاهُوَ مَحمُودُ دَروِيشُ يَرفَعُ الرَّأسَ (**شامخًا**)، بِأَنَّ الوُضُوحَ جَرِيمَةٌ، وَأَنَّ اللُّغَاتِ المَفهُومَةَ جَرِيمَةٌ، وَأَنَّ أَحَدًا لَن يَفهَمَهُ، فَفَهمُهُ مُعجِزَةٌ:

لَن تفهَمُونِي دُونَ مُعجِزَةٍ
لأَنَّ لغَاتِكُم مَفهُومَة
إِنَّ الوُضُوحَ جَرِيمَة [٢١]

وَإِمعَانًا فِي الغُمُوضِ، وَالإِبهَامِ، رَاحَ دَروِيشُ يَدعُو لِكُلِّ شَيءٍ غَامِضٍ، وَلِلمُستَقبَلِ المَجهُولِ الذِي لَم يَصِلِ بَعدُ، يَقُولُ فِي هَذَا:

طُوبَى لِشَيءٍ غَامِضٍ
طُوبَى لِشَيءٍ لَم يَصِلِ [٢٢]

وَمَا دُمنَا بِصَدَدِ الحَدِيثِ عَن هَذِهِ القَضِيَّةِ، فَإِنَّ هَؤُلاءِ الشُّعَرَاءِ الحَدَاثِيِّينَ، الذِينَ يُمَارِسُونَ الغُمُوضَ عَن قَصدٍ، وَسَبقِ إِصرَارٍ، يُسفِرُونَ، وَيَكُونُونَ فِي غَايَةِ الوُضُوحِ، إِذَا مَا تَعَرَّضُوا لِرَمزٍ مِن الرُمُوزِ الدينية، حَتَّى تَصِلَ رِسَالَتُهُم وَاضِحَةً مِن غَيرِ لَبسٍ، وَلا إِبهَامٍ، بِحَيثُ لا يَدَعُونَ مَجَالاً لِلحَدسِ، أَوِ التَّأوِيلِ. يقول أدونيس:

عائشة مرت، فكل ليل
تختٌ، وكل ناقة مصباح
للجسد الضرير أو للزمن الضرير
عائشة تجتاح – لون الشهوة اجتياح

(٢٠) سميح القاسم – جهات الروح – (ديوان) ص٩٠، ٩١.

(٢١) محمود درويش – الديوان – ص٤٨٤.

(٢٢) السابق نفسه: مج١ ص٥١١.

راقصها الأمير وهو لابس قبعة الشحاذ

أو راقصها الشحاذ وهو لابس قبعة الأمير

سَامَرَها غنّى لها حتى غفا الكلام

لف عليها زنده وغطى

سُرَّتها، ونام... [٢٣].

...ومن هـؤلاء سَميحُ القَاسِمُ الذي يَقُولُ مُتجاوِزًا كلَّ حُدُودِ القَدَاسَةِ وَالأَدَبِ، وَاللَّيَاقَةِ مَعَ أَنبيَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فِي قَصِيدَتِهِ (**هِجَاءُ إبرَاهِيم**):

لم تَكُن رَجُلاً مُنصِفًا. لَم تَكُن رَجُلاً. أنتَ دمَّرتَ سيِّدَةَ فاضلة

ذنبُهَا أَنَّهَا حمَلَت مِنكَ نُطفتَكَ الآفِلَة

لَم تَكُن عَاقِلاً. حينَ قايَضتَكَ أُسرتَكَ العَاقلة

بالجُنونِ البَهيمِي وَالنَّزوَةِ الجَاهِلة (!!)

وَيُوَاصِلُ القَاسِمُ هِجَاءَهُ وَتَعَدِّيهِ.. حَتَّى يَقتَحِمَ عَلَى أَبِي الأَنبِيَاءِ بَيتَهُ، فَيَصِفُ زَوجَهُ سَارَّةَ بِأَقذَعِ الأَوصَافِ:

سيِّدِي: لَم تَعُد سَيِّدًا مُنذ أَغوتكَ أفعَى النِّسَاءِ التي شَرَّعَت بَابَهَا

وَأَضَاءَت مَصَابِيحَ شَهوَتِها كَي يَرَى السَّابِلَة (!!)

زِينَة وبُخُورًا عَلَى سدَّةِ الشَّبَقِ القَاتِلة

وَفِي اعتِرَاضٍ صَرِيحٍ عَلَى أَمرِ اللَّهِ سبحانه وتعالى بِذَبحِ إسمَاعِيلَ ﷺ يَقُولُ القَاسِمُ:

لَم تَكُن رَجُلاً حِينَ هَمَّت يَدَاكَ بِطِفلٍ صَغِيرٍ(!!)

وَذبَحتَ الضَّمِير

وتَتَصاعدُ وتيرةُ الغِوايةِ وَالضَّلالِ إِلَى قِمَّتِهَا، حِينَ رَاحَ الشَّاعِرُ يَستَخدِمُ أَلفَاظًا سُوقِيَّةً، تَفُوحُ مِنهَا رَائِحَةُ الهُبُوطِ الفَاضِحِ التِي تَزكُمُ الأُنُوفَ، وَتُؤذِي المَشَاعِرَ، مُنَحِّيًا بِذَلِكَ كُلَّ القَدَاسَاتِ وَالقِيَمِ وَالأَخلاقِ الفَاضِلةِ.

لَم تَكُن رَجُلاً. لَم تَكُن آدَمِيًّا سَوِيًّا عَلَى صُورَةِ الله يَا سَيِّدِي.

يَا سَيِّدِي لَم تَكُن غَيرَ وَغدٍ وَحَقِير... (!!)

بَينَ فَخذيهِ صَحرَاؤُهُ القَاحِلَة

وَأَلاعِيب غَانِيَة سَافِلَة (!!)

لَم تَكُن سَيِّدًا

لَم تَكُن رَجُلاً [٢٤]

---

(٢٣) ينظر/ أدونيس(علي أحمد سعيد) – الأعمال الشعرية الكاملة – ط٤، ١٩٨٥م، دار العودة/ بيروت، المجلد الثاني، ص٧٣. (في تعرضه لعائشة رضي الله عنها).

(٢٤) سميح القاسم – سأخرج من صورتي ذات يوم..– (ديوان) ص٥٩، ٦٠.